﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

[الأعلى: 1 - 5]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تنزيهُ الله تعالى عن الاستعجالِ، وتنزيهُ القرآن عمّا رُمي به

لمّا تضمَّن أمرُه تعالى في آخر الطّارق بالإمهال النَّهيَ عن الاستعجال الذي هو منزّه عنه؛ لكونِه نَقْصًا، وأشار نفيُ الهزلِ عَن القرآنِ الكريم إلى أنَّهم وصَموهُ بذلك وهو في غاية البُعْدِ عنه إلى غير ذلك ممّا أُشير إليه فيها، ونزّه نفسَه سُبْحانَه عنه؛ أمَرَ أكملَ خلقِهِ رسولَه ﷺ المُنْزَلَ عليه هذا القرآنُ بتنزيهِ اسْمِه؛ لأنَّه وحْدَهُ العالِم بذلك حقَّ عِلْمِه، وإذا نزّه اسمَه عن أن يدعو به وثنًا أو غيره أو يضعه في غير ما يليق به؛ كان لذاته سبحانه أشدَّ تنزيها[1].

تعظيمُ الله تعالى، والتَّسبيح بحمده؛ لأخذِهِ الظّالمين، وإبطالِهِ كَيْدَهُم

ولمّا خُتمتِ سورة الطّارق بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ [الطّارق: 15 - 17] وفيه تهديدٌ للمُشْرِكين، وتطمينٌ لقَلْبِ النَّبيِّ ﷺ، وحماية له مِنَ الكَيْدِ الذي يُكاد له؛ ناسَب أن تَجيء بعدَها سورة الأعلى مُبتدِئةً بقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾؛ لتَمْجيدِ الله تعالى وتعظيمِه، والتَّسبيح بحَمْدِه، على أنَّه أخَذَ الظّالمين بظُلْمِهم، وأبطَل كَيْدَهُم[2].

الانشغالُ بما يُعين على أمورِ الدَّعوة، والانصراف عن التَّفكير في عذابِ الظّالمين

ومِن وُجوه المُناسبَةِ أيضًا: أنَّهُ بَعْدَ أن خُتِمَت سورةُ الطّارق بأمْرِ الرَّسول ﷺ بإمهال الكافرين والصَّبر عليهم إلى أن يحينَ الوَقْتُ الذي حدَّده الله تَعالى لنزولِ العَذابِ بهِم؛ ناسب أن يأمُرَهُ بالمُضيِّ في طريق دَعْوَتِه، والانشغال بما يُعينُه عليها، ويُساعِدُه على القيام

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 388.
(2) الخطيب، التَّفسير القُرآني للقرآن: 16/ 1526.

بمَهامِّها، ويزيده قُرْبًا إلى خالقِه ومولاه، وهو تسبيحُ اسْمِ اللّه تَعالى، الذي لا تعلو إرادتَه إرادةٌ، ولا يعلو كيدَه كيدٌ؛ لأنَّه الأعلى أزَلًا وأبدًا.

❁ شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿فَسَوَّىٰ﴾: (سوي) أصْلٌ يَدُلُّ عَلى اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، يُقالُ: هَذا لا يُساوي كَذا؛ أيْ: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ عَلى سَوِيَّةٍ مِنْ هَذا الأمْرِ؛ أيْ: سَواءٍ، ومَكانٌ سوًى؛ أيْ: مَعْلَمٌ قَدْ عَلِمَ القَوْمُ الدُّخولَ فيهِ والخُروجَ مِنْهُ، ويُقالُ: أسْوى الرَّجُلُ؛ إذا كانَ خَلَفُهُ ووَلَدُهُ سَوِيًّا[1]، ومنه: التَّسوية، ومعناها: صُنْعُ الشَّيءِ سويًّا؛ أي: إكمال حالِه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، وقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: 37]، وقال أيضًا: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29][2].

2) ﴿قَدَّرَ﴾: (قدر) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِهِ، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ، يُقالُ: قَدْرُهُ كَذا؛ أيْ: مَبْلَغُهُ، وكَذلِكَ القَدَرُ، وقَدَرْتُ الشَّيْءَ أقْدِرُهُ وأقْدُرُهُ مِنَ التَّقْديرِ، وقَدَّرْتُهُ أُقَدِّرُهُ[3] والقَدْرُ والتَّقْديرُ: تَبْيينُ كَمِّيَّةِ الشَّيءِ، يُقال: قَدَرْتُهُ وقَدَّرْتُهُ، ومنه قولُه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾؛ أي: أعطى كُلَّ شيءٍ ما فيه مَصْلَحَتُه، وهُداهُ لِما فيه خَلاصُهُ، إمّا بالتَّسخير، وإمّا بالتَّعليم[4].

3) ﴿فَهَدَىٰ﴾: (هدي) أصْلانِ؛ أحَدُهُما: التَّقَدُّمُ لِلإرْشادِ، ومنه قَوْلُهُمْ: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ هِدايَةً؛ أي: تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ، وكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هادٍ[5]، والهِدايَةُ هي: الدَّلالة بلُطْفٍ، والتَّوفيق الذي يختصُّ به كُلَّ مَن اهْتَدى، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: 17]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: 11]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[6].

4) ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾: (رعي) أصْلانِ؛ أحَدُهُما: المُراقَبَةُ والحِفْظُ، يُقال: رَعَيْتُ الشَّيْءَ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قدر).
(4) الرّاغب، المُفردات: (قدر)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 4/ 245.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قدر).
(6) الرّاغب، المُفردات: (هدى)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 5/ 315.

رَقَبْتُهُ، ورَعَيْتُهُ؛ إذا لاحَظْتَهُ، والرَّعْيُ في الأصل: حفظ الحيوان، إمّا بغذائه الحافظ لحياته، وإمّا بذبِّ العَدوّ عنه، يُقال: رَعَيْتُهُ؛ أي: حفظته، وأرْعَيْتُهُ: جعلتُ له ما يرْعَى، والمَرْعى: مَوْضِعُ الرَّعْي، قال تَعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: 54]، وقال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات: 31]، وقال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾[1].

5) ﴿غُثَآءً﴾: الغَيْنُ والثّاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلى ارْتِفاعِ شَيْءٍ دَنيٍّ فوْقَ شَيْءٍ، مِنْ ذلِكَ الغُثاءُ: غُثاءُ السَّيْلِ، يُقالُ: غَثا الوادي يَغْثو، وأغْثى يُغْثي أيْضًا، وهو: ما يَحْمِلُه السَّيل مِن القَشِّ ووَرَق الشَّجر والزَّبَدِ والحَشيش والوَسَخ، والمعنى المحوريُّ: تَجَمُّعُ ما هو هَشٌّ فاسدٌ أو عديمُ النَّفع طبقةً، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾ معناه: يابسًا جافًّا بعدمًا كان أخضَرَ يانِعًا[2].

6) ﴿أَحْوَىٰ﴾: الحاءُ والواوُ وما بَعْدَهُ مُعْتَلٌّ أصْلٌ واحِدٌ؛ وهوَ الجَمْعُ، يُقالُ: حَوَيْتُ الشَّيْءَ أحْويهِ حَيًّا؛ إذا جَمَعْتَهُ، والحَوِيَّةُ: الواحِدَةُ مِنَ الحَوايا، وهيَ الأمْعاءُ، ويُقال للكِساء الذي يُلَفُّ به السَّنام: حويَّة، وأصله مِن: حَوَيْتُ كذا حَيّا وحَوايَةً، قال تَعالى: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: 146]، وقوله ﷻ: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾، معناه: شديدُ السَّواد، وذلك إشارةً إلى الدَّرين، وهو النَّبات الذي أتى عليه سَنَةٌ ثُمَّ جفَّ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في الآية الأولى أُمِر الرَّسولُ ﷺ والمؤمنون بتنزيهِ أسماءِ اللّه تَعالى عن كُلِّ نَقْصٍ، فلا يُطْلِقوها على غيره إذا كانت خاصَّة به، ولا يذكروها في مواضعَ لا تليق به، وفي الآيات التّالية وُصِفَ ربُّنا

الخَلْقُ والتَّسوية، والتَّقدير والهداية، وإخراج المرعى مِن إبداعاتِ القُدْرَة الإلهيَّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (رعى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غثى)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غثو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حوى)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حوايا).

سُبحانه ذاتَه بصفات توجب له التَّسبيح والتَّمجيد، منها: أنَّه المُتفرِّد بالخلْقِ، لا يُشارِكُه فيه أحَدٌ، وأنَّه الذي أقام كُلَّ مخلوقٍ على أتمِّ صورةٍ وأكْمَلِها، ومنها: أنَّه قَدَّرَ لِكُلِّ مخلوق ما هو مُناسِبٌ له، مُلائم لوجوده، مُحتفظ له بمكانه بَيْنَ المخلوقاتِ، ومنها: أنَّه أخرج مِن الأرض ما يَأْكُلُ منه النّاس والأنعام، وجَعَلَ هذا المأكلَ يتنقَّل من حالٍ إلى حال، فيتحوَّل من الحياةِ والخُضرة إلى الجفاف والمواتِ، فيكون هشيمًا أسْمَرَ اللَّون، ويذهب منه ماءُ الحياة، وذلك من إبداعات قُدرة الخالقِ سُبحانَهُ[1].

❁ الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ الأمْرِ في قولِهِ: ﴿سَبِّحِ﴾:

توجيهُ النَّبيِّ ﷺ وإرشادُه إلى المُداومة على ما يُعينُهُ على تحمُّل كيد المُشركين

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أسلوبُ أمْرٍ، خوطِبَ به النَّبيُّ ﷺ، ويدخُلُ فيه كُلُّ مَن آمَنَ به، وأسْلَمَ معَهُ، وغرضُه: توجيهُ النَّبيِّ ﷺ وإرشادُه إلى المُداومة على ما يعينه على تحمُّل أذى المُشركين، والصَّبر على كَيْدِهم، ويكون في الوقْتِ نَفْسِه شُكْرًا لله تَعالى وامْتِنانًا لردِّ كَيْدِهم عنه وعَن أصحابه، وهو تسبيحُ الله تعالى وتنزيهُهُ عمّا لا يليق به من افتراءات الكافرين وأباطيلهم، والمعنى: نَزِّه وبرِّئ، تنزيهًا وتبرئةً عظيمتَيْنِ جدًّا، قويَّتين شديدَتَيْنِ[2].

وجْه تعديةِ فعلِ التَّسبيح إلى الاسْمِ:

الأمر بإجراء الأخبارِ الشَّريفة والصِّفات الرَّفيعة على الأسماءِ الدّالَّة على الله تعالى

عُدّيَ فعلُ الأمر بالتَّسبيح هُنا إلى ﴿ٱسْمَ﴾ المُضاف إلى ﴿رَبِّكَ﴾ دون تعديتِه إلى الذّات جَرْيًا على عادة البيانِ القرآنيِّ في التَّعبير على هذه الطَّريقة التَّركيبيَّة إذا تعيَّن أنَّ المأمور به قولٌ دالٌّ على تنزيه الله تَعالى، بطريقةِ إجراء الأخبار الطيِّبة أو التَّوصيف بالأوصاف المُقدَّسة لإثباتها إلى ما يدلُّ على ذاتِه تَعالى من الأسماءِ والمَعاني،

(1) الخطيب، التَّفسير القُرآني للقرآن: 16/ 1528، 1529.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 388.

ولَمّا كان أقوالًا؛ كانت مُتعلِّقة باسْمِ اللّه تَعالى باعتبار دلالتِه على الذّات، فالمأمورُ بهِ: إجراءُ الأخبارِ الشَّريفة والصِّفات الرَّفيعة على الأسماء الدّالَّة على اللّه تَعالى؛ مِن أعلام وصفات ونحوها، وذلك آيلٌ إلى تنزيهِ المُسمَّى بتلك الأسماء، ولهذا يَكْثُرُ في القُرآن الكريم إناطَةُ التَّسبيح باسم اللّه تَعالى، نحو قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: 74][1].

دلالة تعريفِ كلمَةِ ﴿ٱسْمَ﴾ بالإضافة:

مَـنْ داوَمَ على تـنـزيـه اسـمِ الـلـه تَـعـالى؛ كان كمَن داوم على تنزيهِ ذاتِهِ سُبحانه

أضاف النَّظمُ الكريم مفعولَ فِعْلِ التَّسبيح؛ وهو ﴿ٱسْمَ﴾ إلى ﴿رَبِّكَ﴾؛ لبيان أنَّ المأمورَ بتسبيحِ اسْمِه هو الرَّبُّ ﷻ، وأنَّ أسماءَهُ المأمورَ بتنزيهِها أعلامٌ على ذاته، وأوصافٌ تدلُّ عليه سُبْحانَهُ، وأنَّ مَن داوَمَ على تنزيهِ أسماءِ اللّه تَعالى؛ كان كمَنْ داوم على تنزيهِ ذاتِهِ، جلَّ شأنُه، وعَظُمَ سلطانُه.

معنى تنزيهِ أسماءِ الله تَعالى:

عـلى المُـسْـلِـم تنزيهُ الله تَعالى عمّا لا يليقُ به، في ذاتِهِ وصِفاتِهِ وأسـمـائـهِ وأفـعـالِـهِ وأحكامِهِ

للّه تعالى أسماءٌ كثيرةٌ، ذكَرها القرآنُ الكريم، كما ذكرَها النَّبيُّ ﷺ إجمالًا في قوله: «إنَّ للّه تِسْعَةً وتِسْعينَ اسْمًا، مِائَةً إلّا واحِدًا، مَنْ أحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ»[2]، ومذكورٌ كثيرٌ منها في تفاصيلِ السُّنَّةِ الشَّريفَةِ، وتنزيهُ المُسْلِم لها يَحْصُل بألّا يُطْلِقَها على غير اللّه تعالى إذا كانَت خاصَّة به، كالاسم الأحسنَ (اللّه)، واسم الرَّحمان، وألّا يَذْكُرَها في موضعٍ لا يَتَناسَبُ معَ جَلالِها وعَظَمَتِها، وألّا يُحَرِّفها عن المعاني التي وُضِعَت لها، فقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: 180]، كما يكون تنزيهُهُ لها بتنزيهِ ربِّه الأعلى؛ عن الشَّريك، وعن الوالد، وعن الولدِ، وعن المثيلِ... وعن كُلِّ ما لا يَليقُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 273.

(2) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (2736)، ومُسلم في صحيحه، برقم: (2677).

بهِ[1]، والمعنى: نزِّهْ ربَّكَ ﷻ عن كُلِّ ما لا يليق به؛ في ذاتِه، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، وأحكامهِ[2].

سِرُّ التَّعبير بوصْفِ الرُّبوبيَّة:

لله تَعالى على خَلْقِه نِعَمٌ تَستَوْجِب التَّسبيح والتَّمجيد

أوثِر التَّعْبيرُ عن ذاتِ اللّه تعالى بوصفِ الرُّبوبيَّة الدّالِّ على حُسْنِ التَّربية والتَّعهُّد بقضاء المَصالح والحاجات[3]، فقيل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾؛ لِما يُشْعِر به من أنَّه الخالِقُ المُدَبِّر، وللتَّذكير بما للّه تَعالى على خَلْقِه من نِعَمٍ لا تُحصى، وهي نِعَمٌ تستوجِب الشُّكر بدَوام التَّسبيح والتَّمجيد، والمعنى: "سبِّح اسْمَ ربِّك المُحْسِن إليك بَعْدَ إيجادِك على صفةِ الكَمال، بتَرْبيَتِك على أحسَنِ الخِلال، حتَّى كنتَ في غاية الجلال والجمالِ"[4].

دلالَةُ الإضافَةِ إلى ضميرِ الخِطاب:

للرَّسول ﷺ حَظٌّ زائِدٌ عَلى أتباعِهِ في التَّشريف والتَّكليف والتَّسبيح

يُلْحَظُ في التَّركيب إضافَةُ وصْفِ الرُّبوبيَّة إلى ضميرِ الخِطاب، المُرادِ بهِ رسولُ اللّه ﷺ في المقام الأوَّل، ويَدْخُلُ فيهِ جميعُ المُسْلِمين بالتَّبع، وذلك في قوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾، وفي ذلك مزيد تشريفٍ للرَّسول ﷺ؛ لدلالَتِهِ على أنَّ له حظًّا زائدًا على أتباعِهِ في الإنعام والتَّشريف، وحظًّا زائدًا كذلك في التَّكليف والتَّسْبيح[5].

بلاغَةُ الوَصْف بـ ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ وغيره مِنَ الصِّفات المَذْكورَة:

اللّه تعالى مُستحقٌّ للتَّنزيه لصِفاتِ ذاتِهِ، ولصفات إنعامهِ عَلى النّاس

أجْرى النَّظم الكريم على لَفْظِ ﴿رَبِّكَ﴾ صفةَ ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ وما بعدها مِن الصِّفات؛ لدلالَتِها على تَصَرُّفات قُدْرَتِه، وأنَّه تعالى مُسْتَحِقٌّ للتَّنزيه لصِفات ذاتِه، ولصِفات إنعامهِ على النّاس بخَلْقِهم في أحسَنِ تَقْويمٍ، وهِدايَتِهم، ورَزْقِهم، ورَزْقِ أنعامِهم؛ للإيماء إلى

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 362.
(2) الجَمَل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 520.
(3) الرّاغب، المُفردات: (رب).
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 389.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 274.

موجِب الأمر بتسبيح اسْمِه بأنَّه حقيق بالتَّنزيه؛ استحقاقًا لذاتِه، ولوَصْفِه بأنَّه خالِقُ المخلوقات خَلْقًا يدلُّ على العِلْم والحكمة وإتقان الصُّنع، وبأنَّه أنعمَ بالهُدى والرِّزق اللَّذين بهما استقامَة حالِ البشَر في النَّفس والجَسَدِ[1].

وجهُ اخْتِصاصِ هذهِ السّورة بوَصْفِ ﴿ٱلْأَعْلَى﴾:

إيثار هذه السّورة دون غيرها من سوَرِ القرآن بوَصْف ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ راجعٌ لكَوْنِها تَضَمَّنتِ التَّنويه بشأنِ القُرآن، والتَّثبيت على تلقّيه، وما تضمَّنه من التَّذكير، وذلك لعلوِّ شأنِه، فهو مِن مُتعلِّقات وصْفِ العُلوِّ الإلهيِّ؛ إذْ هو كلامُ اللّه ﷻ[2].

عُلوُّ شأنِ القُرآن راجعٌ لكونهِ مِن مُتَعَلّقات وصفِ العلوِّ الإلهيِّ؛ إذ هو كلامُ الله تعالى

نوع (أل) ودلالَتُها في ﴿ٱلْأَعْلَى﴾:

(أل) في قولِه: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ لتعريفِ العَهْدِ؛ أي: أنَّ صفةَ العُلوِّ والارتفاع مِن صِفات اللّه الأزليَّة الأبديَّة، التي لا تنفكُّ عنه جلَّ شأنُه، وهي معدودة في عُرف النّاس مِن الكمال، فلا يُنْسَب العُلوُّ دون تقييدٍ إلّا إلى شيءٍ غيرِ مذموم في العرف، ولذلك إذا لم يُذكر مع وصف الأعلى مفضَّلٌ عليه؛ أفادَ التَّفضيلَ المُطْلَقَ، كما في وصفه تعالى هُنا، ولهذا حُكي عن فرعون أنَّه قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: 24][3].

العُلوُّ والارتفاعُ من صفات الله تعالى اللّازمَةِ

دلالَةُ صَوْغِ ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ اسمَ تَفْضيلٍ:

وُصِفَ الرَّبُّ الكريم الذي أُمِر الرَّسول ﷺ بالمُداومةِ على تسبيحِ اسْمِهِ وتمجيده وحُسْنِ عبادته بوصف ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ بصيغة اسم التَّفضيل المُطْلَقِ بقَرينَةِ عدَمِ ذِكْرِ مفضَّلٍ عليه؛ للدَّلالة على أنَّه تعالى له وصفُ العُلوِّ المُطْلَقِ ذاتًا وصفاتٍ، فهو العليُّ على خَلْقِهِ فوقَ سماواتِهِ، وهو المنزَّهُ عَن كلِّ شائبَةِ نقصٍ وكُلِّ سوءٍ من الإلحاد في

الله تعالى له وصفُ العُلوِّ المُطلَق ذاتًا وصفاتٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 274.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 275.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 274.

شيءٍ مِن أسمائه بالتَّأويلات الزّائغة، وإطلاقه على غيرهِ معَ زَعْم أنَّهما فيه سواءٌ، وذكره خاليًا عن التَّعظيم وغير ذلك؛ ليكونَ راسخًا في التَّنزيه، فيكون من أهلِ العِرْفان الذين يُضيئونَ للنّاس مع كونهم في الرُّسوخ كالأوتاد الشّامخة التي هي مع عُلوِّها لا تَتَزَحْزَح[1].

وجهُ التَّعبير بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

قولُه: ﴿ٱلَّذِى﴾ اسمٌ موصولٌ في مَحَلِّ جرٍّ صفةٌ ثانيَةٌ لـ ﴿رَبِّكَ﴾، وقد أوثِرَ التَّعبير به لِما فيه مِن الإثارة إلى التَّفكير في جُملة الصِّلة، والتَّشويق إليها، بسبَبِ ما فيها مِن دلائلَ على إبداعِ اللّه تعالى في الخَلْقِ والتَّسوية، ولِما فيها مِن دلالة عَلى قُدْرَته على البَعْثِ والإرجاع المذكور في قولهِ تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: 8 - 9]، ولما في التَّعبير بالاسْم الموصول مِن الإبهام المُثير إلى الفِكْرِ، بعد التَّرغيب في الذِّكر المُهَيِّئ للفِكْرِ[2].

إثـارةُ الـفِـكْـر، بعد التَّرغيب في الـذِّكـر المُـهـيّـيء للفِكْرِ

دلالةُ التَّعبير بفِعْلِ الخَلْقِ مادَّة وصيغَةً:

آثر البيانُ الكريمُ التَّعبيرَ عن الإيجادِ الأوَّل بالفعل ﴿خَلَقَ﴾ ليَلْفِتَ الأنظار إلى ما فيهِ من إبداعٍ وإعجازٍ ودلائلَ على قُدرةِ اللّه تَعالى عليه، على الرُّغم من كونه إيجادًا من عدم، وإنشاءً من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ، وقد أوثِرَ التَّعبير به ماضيًا للدَّلالة على حُصولِهِ في الواقع، ورؤية المُخاطبين لإبداعِ اللّه تَعالى حقيقةً ماثلةً في الكونِ كلِّه، بسَمائِهِ وأرضِه، وعَرْشِه وفَرْشِه، وإنسِهِ وجنِّه، وهو ما يُقرُّ به الكافرون ولا يُنكرونه، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: 61]، وقال أيضًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: 87]، وفيه كذلك برهانٌ على قُدرةِ اللّه تَعالى على البَعْثِ الذي هو أيسرُ منهُ وأسْهَلُ؛ لأنَّه إعادةٌ، والإعادةُ أسهلُ من الإنشاءِ بداهةً.

إبداعُ الله تعالى حقيقةٌ ماثلةٌ في الكونِ كُلِّه

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 390.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 390.

فائدةُ حذفِ مَفْعولِ فِعْلِ الخَلْقِ:

اقْتَصَر البيانُ الكريم على ذِكْرِ فِعْلِ الخَلْقِ دونَ تحديدٍ لمَفْعولِه، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾؛ ليَلْفِتَ النَّظر إلى ما في فِعْلِ الخَلْقِ نفسِه مِن إعجازٍ ودلائلَ على عظيمِ اقْتِدارِ اللَّه تَعالى، وليعُمَّ الفعلُ جميعَ المخلوقات، كما قدَّره جمهورُ المُفَسِّرين، وكما هو شأنُ حذْفِ المفعول إذا لَم يَدُلَّ عليهِ دليلٌ، والمعنى: خَلَقَ كُلَّ مخلوق، فيكون كقولِه تعالى حكايةً عن قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]، ويُمْكِنُ أن يكون الغَرَضُ مِن حذفِ المَفْعولِ هو العلمَ بهِ لانْصِرافِ المَعْنى إليه، ودلالة السّياق عليه، والمعنى: خَلَقَ الإنسانَ، أو خَلَقَ آدمَ عليه السلام بقرينةِ قَرْنِ الفِعْلِ ﴿خَلَقَ﴾ بـ (سَوَّى)، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29][1].

الله تعالى خالقُ الكونِ كُلِّه، ويدخل فيه الإنسانُ دُخولًا أوليًّا

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها في قولِهِ: ﴿فَسَوَّىٰ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ حرفُ عَطْفٍ يدلُّ على أنَّ التَّسوية كانت عَقِبَ الخلق مُباشرة، ولم يكُن بينَهُما فاصلٌ يُذْكَر، لدرجَةِ أنَّه يُمْكِنُ أن تكون مُصاحبة لَهُ، والمعنى: أوْقَعَ معَ الإيجادِ وعَقَّبه التَّسوية في كُلِّ خلق[2]، ويجوزُ أن تكون الفاءُ للتَّفريع في الذِّكر، باعتبار أنَّ الخَلْقَ مقدَّمٌ في اعتبارِ المُعْتَبَر على التَّسوية، وإن كان حصول التَّسوية مُقارِنًا لحصولِ الخَلْقِ، أو للتَّسبُّب الدّالِّ على أنَّ التَّسوية مُترتّبةٌ على الخَلْقِ ومُسَبَّبة عنهُ[3].

التَّسوية مُتَرَتِّبة على الخَلْقِ وليسَ بينَهُما فاصِلٌ يُذْكَرُ

سِرُّ التَّعبيرِ بفِعْلِ التَّسويةِ:

التَّعبيرُ عنِ المَرْحَلَة التّالية للخلْقِ بالفعلِ (سَوَّى) دالٌّ على أنَّ مِن عظيم نِعَمِ اللَّه تعالى التي توجبُ تنزيهَهُ وتمجيدَهُ أنَّه لم يخلق الخَلْق فقط، وإنَّما أخرج ما خلَق - ممّا أراد مِن إنْسٍ وغيرِه - على

التَّسوية من عظيمِ نِعَمِ اللهِ تَعالى التي توجب تنزيهَهُ وتَمْجيدَهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 275.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 391.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 276.

أتمّ وجْهٍ وأكمَلِه، ووفق نظامٍ مَوْصوفٍ بالإحكام والإتقانِ مُبَرَّأ من الشَّوائب والاختلال[1]؛ بأنْ جَعَلَ لَهُ ما يتأتّى معَهُ كمالُه، ويتمَّ مَعاشُه، "وعَدَلَ بَيْنَ الأمزجة المُختلفة: الماءِ والهواءِ والنّار بعد أن قَهَرَها على الجَمْعِ مع التَّضادِّ لئلّا تَتفاسَدَ، وذلك بالعِلْمِ التّامّ والقُدرة الكاملة؛ دلالة على تمامِ حِكْمَتِه وفِعْلِه بالاختيار"[2].

وَجْهُ تَضْعيفِ عينِ (سَوَّى) والتَّعبير به ماضيًا:

مَنْ قدر على الخلق مِن عدمٍ قادرٌ على التَّسوية لا محالة

تضعيفُ عينِ (سَوَّى) دالٌّ على المُبالغة في التَّحسين والتَّسوية للمخلوقات بصفةٍ عامَّة، وللإنسانِ بصفةٍ خاصَّة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 7 - 8]؛ والتَّعبير به ماضيًا دالٌّ على حُصول ذلك بطريقة سهلةٍ ليسَ فيها شيء مِن الصُّعوبة، فإنَّ مَن قَدِرَ على الخلقِ مِن عدَمٍ؛ قادرٌ على التَّسوية والبَعْثِ لا محالةَ.

وَجْهُ حَذْفِ معمولِ فِعْلِ التَّسويةِ:

التَّسوية شاملةٌ جميعَ المخلوقات وليست للإنسانِ فحَسْبُ

اقتصر النَّظم القرآنيُّ على ذِكْرِ فِعْلِ التَّسوية دون تحديدٍ لمَفْعولِه، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾؛ ليَلْفِتَ النَّظر إلى ما في التَّسوية نفسِها مِن إعجازٍ ودلائل على عظيم قُدرةِ الله سُبْحانَه، ويجوزُ أن يكون الحذفُ ليَعُمَّ الفعلُ جميعَ المخلوقاتِ، ويَدْخُل فيها الإنسانُ دُخولا بُرْهانيًّا، فإنْ حُمِل على العموم فالتَّسوية: أنْ جَعَلَ كلَّ جنسٍ ونوع من الموجوداتِ مُعادِلا؛ أي: مُناسِبًا للأعمال التي في جِبِلَّته، فاعوجاجُ زُبانَى العقربِ - وهما قَرْناها - من تسويةِ خَلْقِها؛ لتدفَعَ عن نفسِها بها بسهولَةٍ[3].

توجيهُ العَطْفِ بالواوِ:

إيرادُ الصِّفات المُقْتَضيَة لتَسْبيحِ الله تَعالى وتَمْجيدِهِ

الواوُ في قوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ لعَطْفِ ما بعدها على ما قبلها،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 449.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 391.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 276.

وأوثِرَ العَطْفُ بها للدَّلالة على أنَّ ما يليها صفةٌ مِن الصِّفات التي توجب تسبيحَ الله تَعالى وتمجيدَهُ؛ لأنَّها تَدلُّ على الإعجاز وعظيم قُدرةِ الله تَعالى، شأنُها شأنُ ما سَبَقَها مِن الصِّفات والأفعالِ.

سِرُّ تكرارِ التَّعبير بالاسمِ المَوصولِ:

كـلُّ صـفـةٍ مِـنَ الصِّفات المذكورة ثابتةٌ لله تَعالى ثبوتًا مُستَقِلًّا

قوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ هو الصِّفة الثّالثة من الصِّفات الموجِبَةِ تسبيحَ الله تعالى وتمجيدَه؛ أعاد النَّظمُ الكريمُ التَّعبير فيها، وفيما بعدها بالاسْمِ المَوْصول فقال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ مع إمكانِ الاكْتِفاءِ بحَرْفِ العَطْفِ عَن تكراره؛ للاهتمام بكلِّ صلةٍ مِنَ الصِّلات المذكورة، وإثباتها لمدلولِ المَوْصولِ إثْباتًا مُستقلًّا[1].

دلالَةُ التَّعبير بفِعْلِ التَّقدير مادَّة وصيغَةً:

الـتَّـقـديـر مـن عـظـيـم نِـعَـمِ الله تَعالى التي تـوجِـبُ تنزيهَهُ وتَمْجيدَهُ

عبَّر النَّظم في الصِّفة الثّالثة مِن صفات الله تَعالى بفِعْلِ التَّقدير، فقال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه تَعالى مع قدرته على الخَلْق والتَّسوية قدَّر - معهما - لِكُلِّ مخلوقٍ ما فيه مَصْلَحَتُه، وهَداهُ لِما فيه خَلاصُهُ، إمّا بالتَّسخير، وإمّا بالتَّعليم[2]، وأنَّ ذلك التَّقدير مِن نِعَمِ الله تعالى التي تَسْتَوْجِب عِبادَتَهُ وتَنْزيهَهُ، والمعنى: أوقَعَ تقديرَهُ في أجناسِ الأشياء وأنواعِها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها، وغير ذلك مِن أحوالِها، فجَعَلَ البَطْشَ لليَد، والمَشْيَ للرِّجل، والسَّمْعَ للأذُنِ، والبَصَرَ للعَيْنِ، وهكذا[3]؛ وجيء به مضعَّف العَيْنِ للدَّلالة على إبلاغِه سُبْحانَه في التَّقدير والتَّرتيب، وماضيًا؛ للدَّلالة على فِعْلِه ذلك على وجْهٍ بالِغٍ في السُّهولة واليُسْرِ.

التَّوجيه البلاغيُّ للقراءاتِ الواردَةِ في ﴿قَدَّرَ﴾:

التَّكامُل الدَّلاليُّ بـيـنَ الـقِـراءاتِ القُرآنيَّة

اختلف القُرّاءُ في ﴿قَدَّرَ﴾؛ فقرأ الجُمْهورُ بتشديد الدّالِّ، وقرأ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 276.
(2) الرّاغب، المُفردات: (قدر)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 4/ 245.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 392.

الكسائيُّ بتخفيفها: ﴿قَدَرَ﴾[1]، وقِراءَةُ التّشديد تدلُّ على تمام التَّقدير والتَّرتيب، بخلاف قراءةِ التَّخفيف فإنَّها تؤكِّد سُهولَةَ التَّقدير ويُسْرَه على الله جَلَّ في عُلاه.

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها في قولِهِ: ﴿فَهَدَىٰ﴾:

الهداية مُتَرَتِّبةٌ على التَّقدير ومعطوفةٌ عليهِ عَطْفَ المُسَبَّب على السَّبب

الفاءُ في قوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ حرفُ عَطْفٍ يُفيد التَّعقيب، والمَعْنى: أوْقَعَ عَقِبَ التَّقدير الهِدايةَ لذلك الذي وقَعَ التَّقدير مِن أجْلِه[2]، ويجوزُ أن يُفيدَ التَّسبُّب والتَّرتُّب، ما يعني: أنَّ الهدايةَ مُترتِّبة على التَّقدير ومُسبَّبة عنه، ومعطوفة عليه عطفَ المُسبَّب على السَّبب، والمعنى: فهَدَى كُلَّ مُقَدَّرٍ إلى ما قُدِّر لهُ[3].

دلالة التَّعبير بِفِعْلِ الهِداية مادَّةً وصيغَةً:

الهدايةَ نعمةٌ مِن نِعَمِ الله تعالى التي توجب تمجيدَهُ وتسبيحَهُ

التَّعبير عن المعطوفِ على التَّقدير بالفِعْلِ (هَدَى) المُسْنَدِ إلى ضمير الاسْمِ الموصول دالٌّ على أنَّ الهِداية - التي تَعْني توفيقَ كُلِّ مخلوقٍ وإرشاده إلى القيام بما قُدِّر له - نعمَةٌ مِن نِعَمِ الله سُبحانَهُ التي توجِبُ تَسْبيحَه وتمجيدَه، والمعنى: قدَّر الأشياءَ كُلَّها فهداها إلى أداءِ وظائفِها كما قدَّرها لها، والتَّعبيرُ به ماضيًا دالٌّ على فِعْلِه ذلك بكُلِّ يُسْرٍ وسهولة، فإنَّ مَنْ قَدَرَ على الخَلْقِ والتَّسوية والتَّقدير قادرٌ على الهدايةِ أيضًا.

وَجْهُ حَذْفِ مفعولِ فِعْلِ الهِدايَةِ:

هدايةُ الله تَعالى تعمُّ المخلوقاتِ كلَّها، ويدخلُ فيها الإنسانُ دخولًا أوليًّا

حُذِفَ مفعولُ فعل الهدايةِ؛ ليُفيد عمومَ المعنى وشمولَه كُلَّ المَخْلوقاتِ، وهو عامٌّ مخصوصٌ بما فيه قابليَّة الاهتداءِ مِن ذوات الإدراك والإرادة، وهي أنواعُ الحَيوان، أمّا الأنواع التي خَلَقَها الله تَعالى وقَدَّر نظامها ولم يُقدِّر لها الإدراك، فذلك غيرُ مُرادٍ مِن قوله:

(1) ابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر: 2/ 400.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 392.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 276، 277.

﴿فَهَدَىٰ﴾؛ لأنَّها مخلوقة ومُقَدَّرة ولكنَّها غير مهديَّة لعدم صلاحها للاهتداء، وإنْ جُعِلَ مفعولُ ﴿خَلَقَ﴾ خاصًّا بالإنسان؛ كان مفعول ﴿قَدَّرَ﴾ على وزانِهِ؛ أي: تقدير كمال قوى الإنسان، وكانت الهدايةُ هدايةً خاصَّةً، وهي: دلالةُ الإدراكِ والعَقْلِ[1].

سِرُّ إيثارِ وصْفَي التَّسوية والهداية:

مَنْ يُسَوّي خَلْقَ النَّبيِّ ﷺ لِتَحَمُّل أعباء الرِّسالةِ؛ لا يفوتُهُ أن يُهَيِّئه لحِفْظِ ما يوحيهِ إليهِ

أوثِر وصْفا التَّسويةِ والهداية مِن بَيْنِ صفاتِ الأفعال التي هي نِعَمُ اللَّه تَعالى على النّاس، ودالَّة على استحقاقه تعالى للتَّنزيه؛ لأنَّ في هذين الوَصْفَيْنِ مُناسبة بما اشْتَمَلَت عليه مِن السّورة، فإنَّ الذي يُسَوّي خَلْقَ النَّبيِّ ﷺ تسويةً تُلائِمُ ما خَلَقَهُ لأجله مِن تحمُّل أعباء الرِّسالة، لا يفوتهُ أن يُهَيِّئه لحِفْظِ ما يوحيهِ إليه، وتَيْسيرُه عليه، وإعطاؤُه شريعةً مُناسبةً لذلك التَّيسير، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وقالَ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾[2].

دلالة التَّعبير بفِعْلِ الإخراج مادَّة وصيغة:

أمْرُ البَعْثِ والإخراجِ سَهْلٌ على اللهِ تَعالى مَعَ ما فيهِ مِن اسْتِحالَةٍ عَلى غَيْرِه

عبَّر النَّظم الكريمُ عن بُروزِ النَّبات مِن مَقَرِّه تحت الأرض وظُهوره على سَطْحِها بالفعل ﴿أَخْرَجَ﴾؛ للدَّلالة على ما في هذه الحالِ التي تتكرَّر أمامَ النّاس كثيرًا حتَّى اعْتادوها مِن إعجازٍ ودلالةٍ على قُدرَة اللَّه تعالى على كُلِّ شيء، ويدخل في ذلك: قُدْرَتُه على البَعْثِ دُخولا أوليًّا، وجيء به ماضيًا للدَّلالة على كونهِ حَقيقة واقعَة يُشاهِدها المُخاطَبون ويَرَوْنَها أمامَهُم حاصلةً ماثلَة، مِن غير حاجة إلى تقويةٍ أو توكيدٍ، ما يَعْني سُهولة أمْرِ الإخراج على اللَّه تعالى بما له مِن القوَّة والقُدْرَة، واستحالتهِ على غيرهِ أيًّا كانَ.

في التَّعبير بالمرعى نفعٌ للإنسان والحيوان، ورعايةٌ للفاصِلَةِ

دلالَةُ إيثارِ لَفْظِ ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾ مُعَرَّفًا:

(أل) في ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾ لتعريف الجِنْسِ؛ إذِ المَقْصودُ به: جِنْسُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 277.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 30/ 277.

النَّبات من شجَرٍ وزَرْعٍ وثمَرٍ وغيرِه، واقتصر على بعضِ أنواعِه، وهو الكَلَأُ؛ لأنَّه مَعاش السّائمةِ التي يَنْتَفِع النّاس بها، ما يعني أنَّ إيثار التَّعبير به دون غيره مِن أنواع الزُّروع والثِّمار راجعٌ إلى عموم نَفْعِه للحيوان والإنسان، يُزاد على ذلك ما في الكلمة المُعبَّرِ بها من رعايةٍ للفاصلة التي بُنِيَتْ عليها السّورةُ الكريمة[1].

نَضارة الحياة قصيرةٌ، كقِصَر نضارة المَرْعى

ومِن وجوه تخصيصِ البيانِ الكريم ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾ بالذِّكر دون غيره مِن أنواع النَّبات؛ لأنَّه أدلُّ على قُدرة الله تَعالى على البَعْث؛ لكونِه مِمّا يُنْبِتُه النّاس، وإذا انتهى تَهَشَّم وتفتَّت وصار تُرابا، ثُمَّ يُعيده الله تعالى بالماء على ما كان عليه، سواء كما يُفعل بالأمواتِ من غير فرْقٍ أصْلًا[2]، وفي إيثاره بالذِّكر كذلك إشارةٌ إلى أنَّ مُدَّة نضارة الحياة للأشياء تُشْبِهُ المُدَّةَ القصيرةَ للنَّبات، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: 24][3].

دلالةُ صَوْغِ ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾ مَصْدرًا ميميًّا:

تَصْويرُ المَعْنى قائِمًا مُتَحقّقا في الوُجودِ

﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾ النَّبتُ الذي ترعاهُ السَّوائمُ، وأصلُه: إمّا مصدرٌ ميميٌّ، أُطْلِق على الشَّيء المَرْعيِّ؛ مِنْ إطلاق المَصْدَرِ على المفعول، مثل الخَلْقِ بمعنى: المخلوق، وإمّا اسمُ مكانِ الرَّعي؛ أُطْلِقَ على ما يَنْبُت فيه ويُرعى، إطلاقًا مجازيًّا بعلاقة الحلولِ، كما أُطْلِقَ اسم الوادي على الماءِ الجاري فيهِ، والقرينَةُ: جَعْلُهُ مفعولًا لـ ﴿أَخْرَجَ﴾[4]، والتَّعبير بالمصدر الميميِّ يُصَوِّر المعنى المصدريَّ واقعًا قائمًا مُتحقِّقًا في الوجود؛ ومِن هُنا عُبِّرَ به لتأكيدِ تحقُّقِ إخْراج المَرْعى.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 30/ 278.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 394.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 279.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 278.

معنى (الفاء) في قولِه: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ حرفُ عطفٍ يُفيد التَّعقيبَ، الدّالَّ على سُرعة تحوُّل النَّبات مِن حال الخضرة والنَّضارة والازدهار إلى حالِ اليَبَس والهشاشَة والسَّواد، ما يُشير إلى سُرعة انقضاء الأعمار، وفوات الأزمان، وسُرعة تحوُّل الإنسان من حالِ القوَّة إلى حال الضَّعف، ومِن حال الحياةِ إلى حالِ المَوْتِ... وهكذا.

سُرعان ما تمرُّ الأعمار، وسُرعانَ ما يتحوَّل الإنسانُ وغيرُه من حالٍ إلى حال

دلالة التَّعبير بفِعْلِ الجَعْلِ مادَّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ عن تحويل النَّبات مِن حالِ الازْدِهارِ إلى حالِ اليُبوسَة، وتَغيُّر شَكْلِه من الخُضرة إلى الصُّفرة بفعْلِ الجَعْلِ الموضوع للتَّحويل والتَّصيير قائلًا: ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾؛ ليَلْفِتَ النَّظر إلى ما في هذا التَّحويل مِن عِظَةٍ وعِبْرَةٍ، تدفَعُ المُعرِض إلى التَّخلي عن الإعراض، والكافرَ إلى التَّحوُّل للإيمان، وليَلْفِتَ النَّظر أيضًا إلى ما فيه مِن دلائِلَ على عظيم قُدرة الله تَعالى، التي تدفَعُ مُنْكِرَ البعث إلى الإيمان به، وجيء به ماضيًا للدَّلالة على قُدرة الله تعالى على التَّحويل والتَّصيير على وجهٍ بالغٍ في السُّهولة والسُّرعة.

في التَّحويل من حالٍ إلى حالٍ عِبرةٌ تدفَعُ الكافِرَ إلى الإيمان، ومُنْكِرِ البَعْثِ إلى الإقرارِ

مرجِعُ الضَّمير في (جَعَلَهُ):

الضَّمير المنصوبُ في (جَعَلَهُ) يرجع إلى ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ الذي كان بَعْدَ الإخراج أخضَرَ يانِعًا جميلًا، والمَعْنى: جعَلَهُ كثيرًا، ثُمَّ أنْهاهُ فأيْبَسَهُ وهَشَّمَه ومَزّقه، فجمعَ السَّيل بعضَه إلى بعض، فجعله زَبَدًا وهالِكًا وباليا وفُتاتًا على وجهِ الأرض[1].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿غُثَآءً﴾:

قولُه تعالى: ﴿غُثَآءً﴾ مفعول ثانٍ لفِعْلِ الجَعْلِ المُسْنَدِ إلى ضميرِ الاسْمِ الموصول الواقع صفةً لـ ﴿رَبِّكَ﴾، وجيء به نكرةً لِما يُفيدُه

النَّباتُ الغثاءُ لا يُعنى النّاسُ به، ولا يَأْبَهونَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 393.

التَّنكير مِنَ العُموم والشُّمول الدّالِّ على شمول الغُثائيَّة كُلَّ الزُّروع والنَّباتات إلّا ما نَدَر، ويجوزُ أن يكون الغَرَضُ مِن التَّنكير هو الهوان والتَّحقير، الدّالُّ على انعدام الفائدةِ والأهَمّيَّة.

موقع ﴿أَحْوَىٰ﴾ ودلالتُه:

الماءُ والهواءُ مِن أسبابِ تَحَوُّل الألوانِ إلى السَّواد

الـ ﴿أَحْوَىٰ﴾ هو الذي يَضْرِبُ إلى السَّواد إذا أصابَتْهُ رُطوبَةٌ، ويجوزُ أن يكون في موقعِ الصِّفة لـ ﴿غُثَآءً﴾، والمعنى: صار بعدَ الخُضْرَة يابِسًا فتَغَيَّر إلى السَّواد، وسببُ ذلك السَّواد: أنَّ العشب إنَّما يجِفُّ عند استيلاء البَرْدِ على الهواء، ومِن شأن البُرودَة أنَّها تُبَيِّض الرّطب وتُسَوّده[1]؛ أي: أنَّه أسودَّ من شدَّة يُبْسِه، فحوتْهُ الرّياح وجَمَعَتْهُ مِن كلِّ أوْبٍ، حَيْثُ تَفَتَّتَ، فكلٌّ مِن الكَلِمَتَيْن فيها حياةٌ وموتٌ[2]، ويجوزُ أن يكونَ ﴿أَحْوَىٰ﴾ حالا من ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي: أخرجه أسودَ مِن شدّة الخُضْرَة، فجعله غثاءً بعد حوته، فيكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، وحَسَّنَ تأخيرَ ﴿أَحْوَىٰ﴾ مُراعاةُ الفَواصل؛ لكنَّ الأوَّل هو الأظهر، وبه قال ابنُ عبّاس ﷺ[3].

بلاغَةُ الاستعارةِ:

حالُ القُرآن مع النّاسِ كحال الغَيْثِ مع الأرض

في وصْفِ إخراج الله تَعالى المَرْعى وجَعْلِه غُثاء أحْوى مع ما سبَقَهُ مِنَ الأوصافِ في سياقِ المُناسبَة بينَها وبَيْنَ الغَرَضِ المَسوق له الكلامُ؛ إيماءٌ إلى تمثيلِ حالِ القرآن وهدايته وما اشتمل عليه مِن الشَّريعة التي تَنْفَعُ النّاس بحال الغَيث الذي ينبت به المرعى فتَنْتَفع به الدَّوابُّ والأنعام، وإلى أنَّ هذه الشَّريعة تكمل ويبلغ ما أراد الله تَعالى فيها كما يكمل المرعى ويبلغ نُضْجُه حينَ يَصيرَ غُثاءً أحْوى، على طريقة تمثيليَّة مكنيَّة، رمز إليها بذِكْرِ لازم الغَيْثِ وهو المرعى، وقد جاء بيان هذا الإيماء وتفصيله في قول النَّبيِّ ﷺ: «مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 129.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 393.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 10/ 456.

والعِلْم، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثيرِ أصابَ أرْضًا، فكانَ مِنْها نَقيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللّه بها النّاسَ، فشَرِبوا وسَقَوْا وزَرَعوا...»[1] الحديث[2].

❁ الفُروقُ المعجميّة:

التَّسوية والتَّعديل:

التَّسوية هيَ: صُنْعُ الشَّيء سويًّا؛ أي: إكمال حالِه، أمّا التَّعديل؛ فهو جَعْلُ الشَّيء مُعتدلًا سَوِيَّ الخَلْقِ، كما يُقال هذا مُعَدَّل[3]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: 7]، ولمّا كان التَّعبير واردًا في سياقِ بيان أسباب الأمْرِ بتَنْزيهِ اللّه تَعالى وتمجيده ناسَبَ التَّعبير بفعل التَّسوية في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾؛ لِما في التَّسوية مِن إعجاز دالٍّ على كمال القُدرة على البعث؛ ولكونها المرحلةَ السّابقة للتَّعديل، والأساس لحصوله، والتي لولاها لَم يَحْصُل.

التَّسوية هي المرحلَةُ السّابقة للتَّعديل، والأساس لحُصولِهِ

الغُثاء واليابس والقاحِل:

الغُثاءُ هوَ الشَّيءُ الهشُّ الفاسد عديم النَّفع، واليابِس: هو الحطَب الذي كان رَطْبًا ثُمَّ يَبِس[4]، والقاحل: هو الشَّيء اليابس الجافُّ[5]، ولمّا كان التَّعبير واردًا في سياق الحديث عن قُدْرَةِ اللّه تعالى على البَعْث؛ ناسَبَ الاستشهاد بالمرعى الذي يُمَثِّل صورة مُتكرِّرة لهذه القُدْرَةِ، كما ناسب التَّعبير بمُفردة الغثاء، التي تُمَثِّل قمَّة مراحلِ انْعِدام النَّفع وذُروتِها، أمّا غيرُها فليسَ كذلك، والقصدُ مِن التَّعبير بيانُ قُدْرَةِ اللّه تعالى على إحياءِ الإنسان بَعْدَ أن يَصيرَ جيفةً لا قيمَةَ لَها.

اللّه تعالى قادرٌ على إحياء الإنسان بعْدَ أن يَصير جيفَةً لا قيمةَ لها

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (79)، ومُسلم في صحيحه، برقم: (2282).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 278.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوى).
(4) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 377.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قحل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والستون،
سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 66 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-45-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 66 : المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-45-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6448894 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"